# الحديث الرابع

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، والصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَه فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[1].

هذا حديثٌ عظيم، وأصلٌ من أصول الدين، وقد اشتمل على قواعد مهمة من قواعد الإسلام. والمراد بالطهور الوضوء، كما صرَّحت بذلك رواية أخرى. والمراد بالشطر النصف. وقد اختلف فى المراد بقوله ﷺ: «**الطُّهُور شطرُ الإيمانِ**» فقيل: معناه: أن الأجر فيه ينتهى تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان.

وقيل: إن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الخطايا وكذلك الوضوء.

وقيل: المراد بالإيمان هنا الصلاة، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٣]

---

(١) صحيح: م (٢٢٣/١/٢٠٣) وهذا لفظه، ت (٣٥٨٣/١٩٦ و ٥/١٩٧) وأوله «الوضوء»، ونس (٥/٦/٥) وأوله «إسباغ الوضوء»، وانظر شرح النووى له.

Scanned by CamScanner

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ، ١٠٣]

وهناك فريق ثالث تستوى حسناته وسيئاته، فلا تثقل هذه ولا تلك، وهؤلاء يوقفهم اللَّه تعالى على سور بين الجنة والنار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا: سلام عليكم، ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

ثم بعد حين يأذن اللَّه لهم فى دخول الجنة. ومن هنا ينبغى لكل مسلم أن لا يستقل شيئاً من الخير، فربما كانت الحسنة التى ستترتب عليه هى التى يثقل بها الميزان يوم القيامة. كما لا يجوز أن يستهين بشىء من الشرّ، فربما كانت السيئة المترتبة عليه هى سبب خفة الميزان يوم القيامة. فلا تحقرن من المعروف شيئاً، ولا تحقرن من المنكر شيئاً، فإن اللَّه يقول حكاية عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

**وقد اختلف العلماء فيما يوزن يوم القيامة على ثلاثة أقوال:**

**الأول:** أن الموزون صحائف الأعمال.

**والثانى:** أن الموزون هو الأعمال نفسها.

**والثالث:** أن الموزون هو العامل نفسه.

والصحيح أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، وأن الأعمال وصحائفها

Scanned by CamScanner

وعاملها كلٌّ يوزن.

فمن ثواب كلمة «**الحمد للَّه**» أنها تملأ الميزان يوم القيامة، لأنها كلمة أحبّها اللَّه تعالى وأحبّ أن يسمعها من عباده، ولذا حمد سبحانه نفسه قبل أن يحمده عباده فقال: ﴿**الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] فهو الحميد فى ذاته وإن لم يحمده عباده. فعليك ـ يا عبد اللَّه ـ بالحمد للَّه، فى السراء والضراء، فإن «**الحمد للَّه تملأ الميزان**».

وأما قوله ﷺ: «**وسبحان اللَّه والحمد للَّه تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السموات والأرض**» فالمراد به: أن ثواب هاتين الكلمتين سبحان اللَّه والحمد للَّه لو قُدّر جسماً لملأ ما بين السموات والأرض.

اللَّه أكبر ما هذا الفضل وما هذا الإحسان؟! أن يقول المسلم سبحان اللَّه والحمد للَّه فيعطى من الثواب ما لو قُدّر جسما لملأ ما بين السموات والأرض. والسبب فى ذلك أن هاتين الكلمتين كلمتان عظيمتان وذلك لما اشتملتا عليه من التنزيه للَّه تبارك وتعالى فى الأولى، والتفويض والافتقار إليه فى الثانية.

فقولك سبحان اللَّه! تنزيه للَّه تبارك وتعالى عن النقائص والمعايب، وقولك الحمد للَّه! تفويض منك إلى اللَّه تعالى فى كل الأمور.

وأما قوله ﷺ: «**والصلاة نور**» فقد قيل: معناه أن الصلاة تمنع من المعاصى وتأمر بالخير، وتنهى عن الشر، وتهدى إلى الصواب، فالصلاة يستضىء العبد بها، ويرى بها الطريق، كما يستضىء بالضياء وبالنور، فالصلاة نور.

وقيل: معناه أن الصلاة تكون نوراً حقيقيًّا فى وجه صاحبها يوم القيامة

Scanned by CamScanner

كما تكون فى الدنيا فى وجهه بهاءً وضياءً وجمالاً. وهذه حقيقة يراها أهل الفراسة من أهل الإيمان فى وجوه أهل الصلاة، ويفقدونها فى وجوه تاركى الصلاة. وهذا النور الذى يكون فى الوجه بسبب الصلاة هو السيما التى قال اللَّه تعالى فيها: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]

ولذا قال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهُه بالنهار. وقال بعضهم: إن للطاعة ضياء فى القلب، ونوراً فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب العباد.

فحافظوا رحمكم اللَّه على الصلاة حتى تكون لكم نوراً فى الدنيا والآخرة.

وأما قوله ﷺ: «**والصدقة برهان**» فمعناه أن العبد يوم القيامة يفزع إلى الصدقة كما يفزع إلى البراهين والحجج، فإذا سئل عن ماله يوم القيامة قال: تصدقت به. ويجوز أن يجعل للمتصدقين سيمًا يستدل بها على صدقتهم فلا يسألون عن مصرف أموالهم.

وقيل: معناه أن الصدقة دليل على صدق إيمان العبد، فلا يتصدق إلا مؤمن صادق الإيمان، وأما المنافق الذى أظهر الإسلام وأبطن الكفر فإنه لا يتصدق لأنه لا يعتقد بقلبه أن اللَّه يخلف عليه فى الدنيا، ويثيبه فى الآخرة.

وأما قوله ﷺ: «**والصبر ضياء**» فمعناه أن الصبر محمود دائماً، وأن الصابر يمشى فى ضياء الصبر كما يمشى فى ضياء الشمس ونور القمر.

قال إبراهيم الخواص: الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة.

وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى هذا الصبر! ما أحوجنا إلى الاستمساك

Scanned by CamScanner

بالكتاب والسنة! فقد قلّ أهل السنة فى المسلمين، وصاروا فى المسلمين كالمسلمين فى غير المسلمين.

وقال ابن عطاء:

الصبر هو الأدب مع القضاء، فلا فزع، ولا جزع، ولا شكوى ولا سخط، ولا ضرب خد، ولا شق جيب، ولا نثر شعر. وإنما صبر واحتساب، ورضا بالقضاء ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

«إن للَّه ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى»[1].

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ومن المهم أن يُعلم أنه لا ينافى الصبر ذكر المريض ما به من مرض للطبيب، أو لإخوانه وزُوّاره، ما دام ليس على سبيل الشكاية والاعتراض. فإن اللَّه تعالى قال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].

مع أنه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فالشكوى إلى اللَّه إذا كانت مع الاستسلام والرضا والتفويض للَّه عز وجل لا تنافى الصبر، وكذلك ذكر العلة للطبيب والإخوان ما دام هناك رضا بقضاء اللَّه عز وجل.

وقوله ﷺ: «والقرآنُ حجَّةٌ لكَ أو عَليكَ» معناه ظاهر، أى أنك يا قارئ القرآن تنتفع به ويشفع لك يوم القيامة إذا تلوته حق تلاوته، أى قرأته واتبعته. وأما إذا قرأته بلسانك ولم تعمل به كان حجة عليك يوم القيامة.

---

(١) متفق عليه: خ (٢٨٤/١٥١/٣)، م (٩٢٣/٦٣٥، ٢/٦٣٦)، د (٣١٠٩/٣٩٦، ٨/٣٩٧)، جه (١٥٨٨/١٥٠٦/١).

Scanned by CamScanner

فالواجب على قارئ القرآن أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقف عند حدوده والواجب على قارئ القرآن أن يتخلق بأخلاقه، ويتأدب بآدابه.

والواجب على قارئ القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون. وأن يُعرف بنهاره إذ الناس مفطرون. وأن يعرف بحزنه إذ الناس يفرحون. وأن يعرف بصمته إذ الناس يخوضون. وأن يُعرف بخشوعه إذ الناس يختالون. ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غالياً ولا صخاباً ولا حديداً.

وهنا أمر لابد من التنبيه عليه، وهو شبهة تعترض كثيراً من الناس، وهى أنه ربما يهم أحدهم بحفظ القرآن فيأتيه الشيطان ويقول له: لا تحفظ القرآن، خشية أن لا تعمل به، فيكون حجة عليك! فيرجع عن همه بسبب هذه الشبهة التى عرضت له، وقد سئل أبو ذر رضى اللَّه عنه عن هذا، فقيل له: يا أبا ذر! إنى أريد أن أحفظ القرآن، وأخاف أن أضيعه!

فقال أبو ذر رضى اللَّه عنه: كفى بتركك له تضييعاً!!

عليك أن تقرأ، وعليك أن تحفظ، ثم عليك أن تستعين باللَّه عز وجل على العمل، وإن تصدق اللَّه يصدقك.

وعليك أن تعلم أن كل مسلم مسئول عن القرآن والعمل به، قرأه أم لم يقرأه، حفظه أم لم يحفظه، ولا يعفيك من السؤال أن لا تكون قارئًا، ولا يعفيك من السؤال أن لا تكون حافظاً، فالعقل إذن يقتضى أن تجتهد فى قراءة القرآن، فإن قراءة القرآن قُربة من أعظم القُرب، وعبادة من أجلّ العبادات، يعطى اللَّه تبارك وتعالى عليها من الأجر والثواب ما لا يعطى على غيرها، وقد بين النبى ﷺ كثرة هذا الأجر بقوله:

**«مَن قَرأ حَرفاً من كتابِ اللَّه فلهُ به حَسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقولُ الم**

Scanned by CamScanner

حرفٌ، ولَكِن ألفٌ حَرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ»[1].

وعليك أن تجتهد فى حفظ القرآن، فإنك ستتبوأ منزلتك فى الجنة يوم القيامة على قدر ما فى صدرك من القرآن، كما قال النبى ﷺ:

«يُقَالُ لقارئِ القرآنِ: اقرأ وارقَ، ورتِّل كما كنتَ تُرَتلُ فى الدُّنيا، فإنَّ مَنزِلَتكَ عندَ آخرِ آيةٍ تَقرَؤُها»[2].

فاقرءوا القرآن يا أهل القرآن! واحفظوا القرآن يا أهل القرآن! «فإنَّ للَّه تعالى أهلينَ مِنَ الناسِ».

قيل: من هم يا رسول اللَّه؟

قال: «أهلُ القرآنِ هُم أهلُ اللَّهِ وخَاصَّتُه»[3].

وقوله ﷺ: «كلُّ الناسِ يغدُو: فبائعٌ نفسَه فمُعتِقُها، أو مُوبِقُها» معناه: كل الناس يسعى: فبائع نفسه للَّه، بطاعة اللَّه عز وجل، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، فمعتق نفسه من عذاب اللَّه عز وجل.

وبائع نفسه للشيطان والهوى باتباعهما ومعصية اللَّه تبارك وتعالى فموبقها أى مهلكها.

ولك أن تعتبر هذه الحال بساعة الصباح: حين تنظر فترى كل الناس نافرين من البيوت: هذا إلى مدرسته، وهذا إلى مصنعه، وهذا إلى متجره، وهذا إلى مزرعته، وهكذا، فتأمل فى الناس، وقل فى نفسك: سبحان اللَّه! تُرى مَنْ مِن هؤلاء سيعود آخر النهار وقد كسب خيراً؟ ومَنْ من هؤلاء

---

(١) صحيح: ت (٣٠٧٥/ ٢٤٨/ ٤).

(٢) صحيح: ت (٣٠٨١/ ٢٥٠/ ٤)، د (١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤).

(٣) صحيح: جه (٢١٥/ ٧٨/ ١).

Scanned by CamScanner

سيعود آخر النهار وقد اكتسب شرًّا؟ واقرأ فى نفسك قول اللَّه:

﴿ من عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ فصلت: ٤٦]

ولو أن الناس حاسبوا أنفسهم على ما يكسبون من الخير والشر كما يحاسبون أنفسهم على ما يكسبون من المال لتغير الحال إلى الأحسن إن شاء اللَّه، ولكن جُلّ الناس اهتموا بالمحاسبة على الأموال وأهملوا المحاسبة على الأعمال، مع أن اللَّه تبارك وتعالى أمرنا بمحاسبة أنفسنا على الأعمال فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [ الحشر: ١٨].

يعنى: وسيحاسبكم عليها، ويجزيكم بها.

قال عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتجهزوا للعرض الأكبر:

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [ الحاقة: ١٨]

❊ ❊ ❊

Scanned by CamScanner